مسلك الماستر: المناهج اللغوية والأدبية لتدريس اللغة العربية

قضايا نقدية حديثة الأستاذ محمد عفط

اتساق النص.

بعد ما تحدثنا عن المقروئية بوصفها محددا من محددات وضوح النص ومعقوليته، ننتقل للحديث عن محدد آخر هو الاتساق الذي يشكل مفهوما متكاملا مع مفهوم المقروئية لأنه يعود إلى المعجم الصرفتركيبي. إلا أن الاتساق يحدد على مستوى البنية الفوقية(مجموعة من تقسيمات التطويرات الموضوعاتية في خطاب ما) أكثر مما يتعلق بالبنية الصغرى للنصوص (الجمل). إنه يظهر ، بصورة ما، مقروئية تشابك الأجزاء المكونة للنص، والمنطق الذي يربطها. إن الاتساق متعلق بمؤشرات النص التي تعرف بأنها سمات التطور الموضوعاتي، والاستمرارية في النص(مانغونو1991). إن مجموع مؤشرات الاتساق الموزعة في النص تكون فيما بينها نسقا، ولها وظيفة الإشارة إلى العلاقات المقامة بين مختلف عناصر جملة(علاقات محكومة بالتركيب والنحو) وبين ملفوظاتénoncés النص نفسه(منطق المتواليات)، وذاك ما يسمح بمنح الخطاب استمرارية معينة أو تجانسا (شارول1994). في عداد مؤشرات الاتساق هذه، يمكن أن نذكر الترتيب المعياري للكلمات في الجملة، واحترام قواعد الربط بين الجمل، والتوزيع المعقلن للأزمنة الفعلية، و أدوات العطف، ومظاهر العائدية، وإعادات التسمية، ومؤشرات الإدماج الخطية (زمان، مكان،تطور)، والمؤشرات التشكيلية (الفقرات، النواظم الميتا خطابية). مجتمعة، فإن مؤشرات الاتساق هي آليات للتنصيص" تتجلى في خلق سلاسل تشاكلية تساهم في إقامة الانسجام الموضوعاتي. وهي إذ تتمفصل أساسا مع خطية النص، فإنها توضح ،لقصد المتلقي، التمفصلات التراتبية والمنطقية و/أو الزمنية الكبرى" (برونكار 1996).

إن اتساق النص إذن يحدث بالعودة إلى أدوات معجمية وصرفتركيبية، مترابطة مع أدوات طباعية حينما يكون النص مكتوبا، لها أثر إنتاج نص تكون أجزاؤه متعاضدة وقابلة للتعرف عليها. إن مؤشرات السياق تعلم المتلقي بالبنية الفوقية

للنص (ما يتجاوز الجملة)، وبخطة تنظيمه المنطقي. إن فعلها في تنظيم معنى النص فعل حقيقي، ويمكن أن يبرهن عليه.

لكن، تنبغي الإشارة إلى أنه رغم أهمية مؤشرات الاتساق في إقامة انسجام النص، فإنها ليست ضمانة له كما في المثال التالي:

الجو بارد. مرض جواد بالزكام

مرض جواد بالزكام فصنعت ليلى حلوى لعرس صديقتها.

إن المثال يبين أن انتفاء الرابط لم يمنع حصول الانسجام في الملفوظ الأول، بينما، رغم وجود الرابط في الملفوظ الثاني، فإن الانسجام غير حاصل.

يشير ذلك إلى أن الاتساق يسهل الانسجام، لكنه ليس دائما مفتاحه.)

الانسجام والملاءمة:

إن مفهوم الانسجام يقربنا من مفهومي قابلية الفهم والمعقولية، بمعنى أنه يأخذ في الحسبان المعنى الشامل للنص. فالإشارات الصريحة للانسجام النصي تحيل على تنظيم المعنى في النص: قصده، بؤرته أو موضوعه(مسند+ مسند إليه)، العلاقة فيما بين أجزاء النص من حيث نمو الموضوع أو البؤرة (مبدأ الاستمرارية المرجعية)، التعريف، التوصيف، واستقرار أصوات التلفظ (المتلفظ والمتلفظ له).

الانسجام ،إذن ، هو الخاصية التي تجعل كل جملة في النص مؤولة في علاقة مع جمل أخرى. وهذه القدرة على الاقتضاء مؤسسة على معنى الجمل القضايا المترابطة فيما بينها وكذلك على معارف العالم المتقاسمة مع المتلقي. ويفيد هذا أنه من الصعوبة القبض على انسجام النص بالعودة فقط إلى السمات اللسانية الشكلية، ذلك أن الانسجام، كما يبرز ذلك جان ماري شيفر 1995 ، " لا يتعلق بمستوى التحقق اللساني، بل على العكس بتشكل المفاهيم الذي ينظم الكون النصي بما هو متوالية نامية نحو نهاية (جان ميشيل آدم 1989): يضمن الانسجام الاستمرارية والاندماج المتطور للدلالات حول بؤرة، وهو ما يفترض مسبقا قابلية متبادلة للمفاهيم التي تحدد تشكل الكون النص المستوعب بوصفه بناء ذهنيا."

يوشح ذلك الدور الهام لقدرة الاستنتاج التي يتوفر عليها المتلقي، تلك القدرة التي تحل في الغالب محل السمات الصريحة للانسجام لإقامة الاستمرارية

المرجعية. وذلك ما يزيده شارول1994 توضيحا بقوله:" إن التعرف على ما يجعل الخطاب منسجما يقتضي ليس فقط تأويل السمات المفترضة للاتساق التي يحملها بل أيضا، وأكثر، أساسا، تفعيل عمليات استنتاجية، وبالأخص، استنتاجات الارتباط، المتعلقة في الآن نفسه بمضمون المعطى الخطابي، والوضعية التي بلغ فيها والمعارف الخلفية للذوات (المتواصلة)."

بناء على ما ذكر، يتصل الانسجام بالقدرة على تدبير سمات الاتساق الفوق جملية وبالقدرة على تدبير السمات البنيوية الكبرى للنمو الموضوعاتي وللتلفظ (تراتبية الأفكار، آليات الإيضاح والتبسيط، واكتناه الأصوات)، بل كذلك قدرة الفهم لدى المتلقي (معارف موسوعية، اهتمام بالموضوع ،نمو معرفي ،حالات عاطفية ،أفكار رائجة ،آراء...)

من جهة أخرى، يمكن اعتبار الانسجام مرتبطا في جزء منه، بالطابع الملائم والمقبول للنص. هكذا، يظهر النص على مستوى تنظيم المضامين أكثر انسجاما كلما كان متطابقا كذلك مع قوانين الجنس، كما يشير إلى ذلك دوكرو وشيفر 1995 حينما يقولان:" نتعلم قولبة كلامنا في أشكال الجنس، و باستماعنا لكلام الآخرين، نعرف أكثر منذ الكلمات الأولى الإحساس القبلي بجنسه، والتنبؤ بحجمه."

إن معرفة أجناس الخطاب وأنماط النصوص هامة في اكتناه انسجام النص وتأويله، إذ يظهر أنه ترتبط بكل جنس استراتيجيات تأويلية خاصة، تتجلى في تعليمات داخلية. فتأويلنا للانسجام يمر بالسهولة التي تكون لدينا على متابعة هذه التعليمات والوصول هكذا إلى تأويل للانسجام النصي للجنس المعني.

كما أن الملاءمة تقوي انسجام النص، ويعني ذلك حسب سبربير و ويلسن أن المتلقين يكونون أكثر انتباها للنصوص والخطابات التي يكون لها صدى فيما يعتقدونه صحيحا وما يعتقدونه بينا، والتي تأخذ في الحسبان قرصياتهم عن الواقع. وضمن هذا المنظور ، ينظر إلى ما هو منسجم على أنه هو ما حكم بملاءمته التي هي أيضا مرتبطة بالطابع المقبول للأفكار المحركة بالخطاب، وهو الطابع المتصل بدوره باستنتاجات المتلقي.

Dominique Maingueneau , L’analyse du discours, Paris, Hachette,p.268

Michel Charolles, Cohésion, cohérence et pertinence du discours, Revue internationale de linguistique française,n°29, 1994, Duculot, p.125-151

Jean Paul Bronckart, Activité langagière, textes et discours, Delachaux et niestlé, p.349

Oswald Ducrot et Jean Marie Schaeffer, Nouveau dictionnaire des sciences du langage, Paris, Seuil, p. 668